

المدينة العتيقة كموروث ثقافي: استقرار نشأة وتطور خنقة سيدي ناجي

Cultural Heritage: A Study of the Origins and Evolution of Khenguët

Sidi Nadji

محمد منصور  * جامعة محمد خيضر، بسكرة Mohammed.mansour@univ-biskra.dz

مخبر التغير الاجتماعي والعلاقات العامة في الجزائر

نور الدين جفال  ، جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي، تبسة djeffalnouredine@gmail.com

تاريخ النشر: 2024/12/31

تاريخ القبول: 2024/11/01

تاريخ الإرسال: 2024/09/29

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى استكشاف معمق لأوجه الموروث الثقافي المادي المتجسد في المدن العتيقة، مع التركيز على النواة القديمة "خنقة سيدي ناجي" كحالة دراسة رئيسية. يأتي هذا الاستكشاف من خلال تحليل أنثروبولوجي لتاريخ نشأتها وتطورها، بالاستناد إلى المعالم الأثرية التي تشكل جزء من نسيج المدينة. وتطرح الدراسة تساؤلات حول العلاقة بين تلك المعالم والمتخيل الاجتماعي للسكان المحليين، وكيفية مساهمة هذا المتخيل في تشكيل رؤية ثقافية لماضي المدينة وحاضرها. يتناول البحث كيفية تعامل المجتمع المحلي مع هذه المدينة العتيقة، ومدى قدرتها على التكيف مع التحولات الاجتماعية والثقافية. ومن خلال استقراء ماضي المدينة، تسعى الدراسة إلى فهم الأسس التي قامت عليها، ودور هذه المدن في الحفاظ على الهوية الثقافية للمنطقة، وبحث في طرق الاستفادة منها كأداة للتنمية الاقتصادية والسياحية. ومن خلال هذا المنظور، تطرح الدراسة نموذجاً يمكن أن يستفيد منه القائمون على السياسات التنموية والمهتمون بالحفاظ على التراث الثقافي، ليكون وسيلة للتنمية المستدامة في منطقة الأوراس.

الكلمات المفتاحية: المدينة، المدينة العتيقة، المتخيل، الموروث، الثقافة.

* المؤلف المرسل  (<https://orcid.org/0009-0005-2714-595X>)

المؤلف الثاني  (<https://orcid.org/0009-0007-2602-2493>)

Abstract:

This study aims to provide an in-depth exploration of one aspect of tangible cultural heritage embodied in ancient cities, with a focus on the old core of "Khenqa Sidi Naji" as the main case study. This exploration is conducted through an anthropological analysis of the city's origin and development, relying on archaeological landmarks that are integral to the city's fabric. The study raises questions about the relationship between these landmarks and the social imagination of the local population, and how this imagination contributes to shaping a cultural vision of the city's past and present. The research examines how the local community interacts with this ancient city and its ability to adapt to social and cultural transformations. By examining the city's past, the study seeks to understand the foundations on which it was built and the role these ancient cities play in preserving the region's cultural identity. It also explores ways to leverage this heritage as a tool for economic and tourism development. From this perspective, the study presents a model that can benefit policymakers and those interested in cultural heritage preservation, serving as a means for sustainable development in the Aurès region.

Keywords: The city, the ancient city, the imagination, the heritage, the culture.

مقدمة:

إذا كانت المدينة بصفة عامة هي ذلك الفضاء الجغرافي الذي يتربع على مجموعة من الصور العمرانية المتشابكة والمتراصة علائقيا وتتضمن مؤسسات اجتماعية واقتصادية وثقافية في نسق منظم يعمل على تلبية حاجيات المجتمع والافراد وتضمن لهم الاستقرار والرفاهية، فان المدينة العتيقة هي خزان حضاري ومنتوج ثقافي عبارة عن تراكمات متنوعة لتعاقب الحضارات المختلفة وتعبر عن تراث انساني لما تحمله في طياتها من شواهد تاريخية مادية حيث تعكس تلك الشواهد المادية الحية من (معابد، فضاءات سكنية، طرق، ساحات، مساح، حمامات، مكاتب) معتقدات، اساليب وطرق عيش هذه المجتمعات في حقبة تاريخية معينة وتعزز هويتهم الثقافية وتعطي صورة يمكن الوصول من خلالها الى فهم الحياة الاجتماعية والثقافية لذلك المجتمع وبالاعتماد على الموروث الثقافي للمجتمع المحلي من عمران ومعالم تاريخية ومعابد ومرويات شفوية واساطير وحكايات شعبية وعادات وتقاليد وبقايا الادوات المستعلة في زمن معين.

تعد خنقة سيدي ناجي (النواة القديمة) التي تقع في الزاب الشرقي أقصى شرق بسكرة وتتوضع في سلسلة الاوراس. منطقة ذات وزن ثقافي متميز لما تتوفر عليه من مواقع اثرية ومعالم تاريخية وثقافية وفنية وتراث حضاري، فهي تختزن ارث انساني بأتم معنى الكلمة لما تتضمنه من معالم تاريخية ورموز دينية مثل زاوية سيدي مبارك بن قاسم بن ناجي وزاوية سيدي عبد الحفيظ وكذا مساجد واضرحة الاولياء وفضاءات سكنية وسرايا والمدرسة الناصرية. فنحن اما م موروث ثقافي معقد ومتعدد القيمة الرمزية والدلالة غني بالمكتسبات المعرفية. لا يمكن فهمه الا من خلال معرفة السياقات التاريخية والثقافية والاجتماعية التي تأسست فيها هذه المدينة وتطورت. وذلك للمحافظة عليها وتنميتها.

ومن هذا المنطلق يمكننا طرح التساؤل المحوري الآتي: ما هي أهم السياقات التاريخية والثقافية لنشأة وتطور المدينة العتيقة خنقة سيدي ناجي؟

أسباب اختيار الموضوع:

من بين الأسباب التي جعلتني اختار هذا الموضوع هي:

-أسباب ذاتية ولعلا أبرزها طبيعة المدن العتيقة والاهتمام بالموث الثقافي من قصص شعبية وروايات واشعار وعادات تعكس ثقافة مجتمع معين والقلق المعرفي والفضول لفهم سياقات نشأة المدينة العتيقة ورموزها ودلالاتها.

-اسباب علمية موضوعية: تكمن في اكتساب الخبرة وزيادة الفهم والموضوعية في سرد الحقائق وتفسيرها ومحاولة في حقل الأنثروبولوجيا لإيجاد تحليلات وصياغة تفسيرات علمية للموروث الثقافي.

-اهداف الدراسة:

من بين أهداف الدراسة التي نسعى لها الكشف عن السياقات التاريخية والثقافية لتشكل مدينة خنقة سيدي ناجي وذلك من خلال المورث الثقافي بشقيه المادي المتمثل في الجانب العمراني واللامادي الذي يعكسه -في سياق دراستنا- المرويات الشفاهية التي نسعى الى الاطلاع عليها وتحليلها وتفسيرها من عدة جوانب اجتماعية وثقافية، وهذا من اجل الوصول الى نتائج تمكننا من الإجابة عن تساؤلنا الرئيسي. وهذا يسهم في فهم التراث الثقافي والحفاظ عليه لما له من اهمية في التنمية المستدامة والحفاظ على الهوية الثقافية للمجتمع.

1-الإطار المنهجي للدراسة:

تصنف البحوث الى بحوث كمية وبحوث نوعية، ويستخدم المصطلحان كمي ونوعي للإشارة الى مناهج مختلفة في البحث المتمثلة في جمع البيانات وتحليلها، ونوع التعميمات والاستنتاجات التي يتوصل اليها.

ان طبيعة موضوعنا هذا موضوع بحثنا المدينة العتيقة كموروث ثقافي: استقراء نشأة وتطور خنقة سيدي ناجي، تجعله يندرج ضمن البحوث الكيفية التي تؤمن بأن السلوك الانساني مرتبط دائما بالسياق الذي حدث فيه، ذلك ان البحث الكيفي يفترض وجود حقائق ظاهرية متعددة يتم بناءها اجتماعيا من خلال وجهات نظر الافراد والجماعات للموقف، والوصول الى الحقيقة يتم من خلال المعنى والفهم، وبالتالي لا يمكننا ان نتطرق الى دراسة جانب من الخصوصية الثقافية للمنطقة خنقة سيدي ناجي بمعزل عن سياقها التاريخي والثقافي في المخيال الاجتماعي.

1-1 مناهج وأدوات البحث:

إن أي دراسة ميدانية تحتاج الى منهج تسير عليه للوصول الى الحقائق الصحيحة والدقيقة والذي تحدده موضوع الدراسة، وطبيعة هذا الموضوع تقتضي الوصف للظاهرة (المعالم التاريخية)، ذلك ان المنهج الوصفي هو الطريقة التي يسلكها العقل في دراسة موضوع أي علم من العلوم للوصول الى القضايا الكلية أي القوانين العلمية وبذلك فان دراستنا تعتمد المنهج الوصفي والتاريخي والاثنوجرافي.

1-2 التقنيات والادوات المستعملة:

نعتمد في بحثنا هذا على مجموعة من الادوات البحثية كونها تساهم مجتمعا العلمي على كشف كل ما من شأنه ان يكون غامضا او مهما، خاصة وأن موضوع المدينة العتيقة يحمل العديد من الرموز والدلالات من خلال المتخيل الشعبي. لذا فاستخدام مجموعة من الوسائل او الادوات البحثية يعتبر ايجابية حسب البحث الانثروبولوجي، وذلك أن الأنثروبولوجي المتمكن يحتاج الى عدد الادوات البحث المتعددة حتى يتمكن من اجراء دراسته، وهذه الادوات تتمثل في:

1-2-1 الملاحظة المباشرة:

في دراستنا " المدينة العتيقة كموروث ثقافي: استقراء نشأة وتطور خنقة سيدي ناجي"، اعتمدنا على الملاحظة المباشرة كأداة رئيسية لفهم البنية الرمزية والدلالية للفضاء الحضري. من خلال التواجد في الموقع تمكنا من ملاحظة التفاصيل المعمارية والعناصر الثقافية التي تعكس هوية المجتمع وتاريخه ورصد التفاعلات اليومية بين السكان والبيئة المكانية، مما يساعد على تفسير كيفية إعادة إنتاج الرموز الثقافية في الحياة اليومية، بالإضافة إلى توثيق استخدامات الفضاءات العامة والخاصة كأدوات تعبير عن الهوية والانتماء المحلي.

1-2-2 المقابلة:

اعتمدنا المقابلة كوسيلة لجمع المعلومات العميقة من خلال المرويات الشفاهية للسياقات التاريخية والثقافية لنشأة وتطور المدينة العتيقة. من خلال إجراء مقابلات مع السكان المحليين، تمكنا من استكشاف القصص الشفوية والتجارب الحياتية التي تكشف عن هذه الدلالات وأهميتها الثقافية والتاريخية. كما ساعدتنا المقابلة في فهم التصورات الذاتية للسكان حول هويتهم الجماعية وعلاقتهم بالفضاء الحضري، مما يوفر رؤى أعمق حول كيفية تمثل الذاكرة الجماعية في تفاصيل المدينة وممارساتها اليومية.

1-2-3- الاخباريون:

لعب الإخباريون دورا محوريا في تقديم رؤى معمقة حول التاريخ المحلي والرموز الثقافية التي تشكل هوية المدينة العتيقة. اعتمدنا على الإخباريين، وهم الأفراد المطلعون على تفاصيل تاريخية وثقافية معينة، للحصول على معلومات موثوقة حول نشأة وتطور المدينة. من خلال حوارات مع هؤلاء الإخباريين، تمكنا من توثيق الروايات الشفوية والمعرفة التراثية التي غالبا ما تكون غير مدونة، مما يساعد في بناء فهم للتاريخ التي تتميز خنقة سيدي ناجي ويعزز من تحليل السياق الثقافي والاجتماعي للموقع.

2- الإطار النظري للدراسة:

1-2-1- المدينة العتيقة كتراث ثقافي:

2-1-1- مفهوم التراث الثقافي:

التراث: يطلق لفظ التراث على مجموع نتاج الحضارات السابقة التي يتم وراثتها من السلف إلى الخلف وهي نتاج تجارب الإنسان ورغباته وأحاسيسه سواء أكانت في ميادين العلم أو الفكر أو اللغة أو الأدب وليس ذلك فقط بل يمتد ليشمل جميع النواحي المادية والوجدانية للمجتمع من فلسفة ودين وفن وعمران وتراث فلكلوري واقتصادي أيضا .

اما التراث الثقافي "فحسب ما جاءت به اتفاقية حماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي التي اقرها المؤتمر العام دورته السابعة عشر باريس نوفمبر 1972م فان مفهوم التراث الثقافي حسب ما جاءت به في المادة الاولى: يشمل العديد من العناصر المكونة للتراث ولبيتي تشمل الاثار و التي تتضمن الاعمال المعمارية و اعمال النحت و التصوير على المباني والعناصر او التكوين ذات الصفة الاثريه والنقوش والكهوف ومجموعات المعالم التي لها جميعا قيمة عالمية استثنائية من وجهة نظر التاريخ او الفن او العلم" (بوجمعة و عمروش، 2023)

"قد ورد ايضا ان التراث الثقافي هو كل المواقع ذات الاهمية العلمية او التاريخية والاثار الوطنية والحياة البرية والمواقع الطريفة والمباني والمنشأة التاريخية والاعمال الفنية، والتراث الشفهي والمكتوب ومجموعات المتاحف وتوثيق كل ذلك، والذي يخلق قاعدة لإبداع ثقافي وفني مشترك" (باحثين، 2013، صفحة 08)

وينقسم التراث الثقافي بدوره الى قسمين رئيسيين وهما: التراث المادي والتراث اللامادي رغم ان كل منهما يرتبط بالأخر ارتباطا وثيقا فالتراث المادي هو تجسيم للتراث المعنوي اللامادي.

التراث الثقافي المادي: يشمل المنشأة والمواقع الاثرية والمعالم التاريخية والاشياء التي تستحق الحفظ للمستقبل لأهميتها الاثرية والمعمارية او العلمية بالنسبة لثقافة معينة. كما يمثل التراث الطبيعي جزءا مهما من الثقافة.

والتراث اللامادي المعنوي وهو مجموع النتاج الفكري لأبناء الشعب فهو يعبر عن ابداعاتهم على مر العصور في مختلف المعارف سواء أكان في العلوم الدينية والفقهية والفلسفة واللغة والأدب والشعر والتاريخ والزراعة وحتى التشريعات القضائية والحكايات والأمثال الشعبية وغيرها من العلوم التي ارتبطت بشكل مباشر مع الانسان وواقعه وحياته اليومية. ويظم ايضا الفنون الشعبية هي من أقسام التراث المهمة والضرورية جدا لما لها من دور كبير، حيث هي قوة قومية للمجتمع، بالإضافة الى أهميتها كقوة

معنوية أيضا ، فهي حصيلة وجدان ومشاعر شعب بأكمله ، حيث كانت تلك الفنون من الوسائل المهمة للتعبير عن أفراحهم وأحزانهم وآمالهم وخيبات أملهم أيضا من ، ومن تلك الفنون الأهازيج والأغاني الشعبية التي تحتوي على العديد من الأمور التي تعبر عن عاداتهم كالاعراس وغيرها من المناسبات.

إن الأهمية في معرفة التراث تعود إلى ضرورة المعرفة بتاريخ المدينة وإرجاع كل أثر لدينا إلى السياقات التاريخية والثقافية الذي نشأت فيه لمعرفة الخصائص والعناصر التي ميزت البناء العمراني في كل فترة وذلك حتى نستطيع القيام بعمليات الصيانة والترميم والمحافظة على الآثار التي لدينا ولمعرفة العناصر المهمة في تلك الآثار وفي حالة القيام بالترميم لمعرفة كيفية التعامل مع المبنى من حيث المواد المستخدمة أو الطرق الهندسية سواء المعمارية أو الانشائية أو الفنية.

2-2- مفهوم المدينة العتيقة:

المدينة العتيقة هي النواة التاريخية التي تأسست ونشأت عليها المدينة الحاضرة التي ظهرت بواورها مع التوسعات الاستعمارية الغربية الحديثة. بينما تعتبر المدينة العتيقة وحدة حضرية متكاملة المجالات والوظائف وقائمة بذاتها لها أسباب تأسيسها وتطورها وهي اليوم تحاول الاستمرار والتأقلم والمحافظة على ديناميتها مع التغيرات الثقافية والاجتماعية الحاصلة. فهي مجال عمراني وثقافي يحمل الذاكرة الجمعية ويحيل إلى تاريخ مجتمع معين.

وتعتبر العوامل الثقافية الدينية هي العوال الأساسية في نشأة وتشكل هذه المدن وخاصة في المجتمعات الإسلامية. وقد تلعب العوامل الطبيعية والاقتصادية دورا مهما في ازدهارها.

فهي تمثل التراث الثقافي المادي واللامادي لمجتمع ما. لما تتضمنه من مواقع أثرية ومعالم تاريخية وعمران يتوسطها في الغالب المسجد الجامع كما تضم متاحف وأحياء سكنية وساحات وأسواق وصناعات تقليدية حيث يكون النظام العمراني منبثق من نسق ديني يعكس قيم الحضارة حسب نسق ثقافي إسلامي. فالعامل الديني يلعب الدور الرئيسي في التماسك والترابط بين وحدات المدينة العتيقة وتشكيلاتها العمرانية.

ويمكن أن نخلص إلى رأي مفاده: المدينة العتيقة هي منطقة تاريخية يتجسد فيها التراث الثقافي بشقيه المادي والمعنوي حيث يمكن تعريفها كما ورد عند كيفن لينش على أنها: (الموضع الذي يعبر عن ظاهرة المكان بالإضافة إلى أنها الثقافة المستمرة وأنها تتميز بالعناصر المحتفظ بها والمحافظة عليها من

البيئة العمرانية وتتميز بقوة الاحتفاظ الدائم بالقيم التراثية والعقلانية المتوارثة. (عبد المعطي، 2020، صفحة 15)

كما يمكن تعريفها حسب معاهدة اليونسكو 1976م بأنها كل مجموعة من الابنية والمساحات والفضاءات بما فيها المواقع الاثرية التي تشكل مستوطن بشرياً في بنة حضرية او ريفية يعترف بتماسكها و فيتها من الناحية الاقربية او المعمارية او التاريخية او قبل التاريخية او الجمالية او الاجتماعية. (عبد المعطي، 2020، صفحة 15)

2-3- أهمية وخصائص المدينة العتيقة:

تكمن أهمية المدن العتيقة في كونها تراث انساني وذاكرة تختزن تاريخ الشعوب في عدة مجالات تتمثل فيما يلي:

اهمية تاريخية تتمثل في الاحداث والشخصيات التي كانت لها تأثير على تاريخ البلد

اهمية اقتصادية فهي تعتبر مصدرا للخل القومي إذا استغلت في مجال السياحة

خلق مناصب للعمل بتنشيط الحرف والصناعات التقليدية.

كما ان لها أهمية في المجال الديني والحفاظ على القيم والعادات والتقاليد.

والمدن العتيقة تتمتع بخصائص تراثية:

مادية مثل: الشكل الخارجي ومواد البناء والعلاقة بين الفضاءات العمرانية والبيئة المحيطة. وكذلك المظاهر المختلفة التي اكتسبتها المناطق التاريخية مع مرور الزمن.

غير مادية مثل الخصائص الاجتماعية وتتمثل في عادات وسلوكيات الافراد مما يجعلها تؤثر على النسيج العمراني. كما تتمتع بخصائص اقتصادية وذلك بوجود فضاء واحد خاص بالحرف التقليدية.

ومن هنا يمكننا ان نخلص الى ان المدينة العتيقة هي شاهد تاريخي حي يتجسد من خلاله الموروث الثقافي لمجتمع ما من معتقدات وعادات وتقاليد وقيم وفنون وادب وعلوم.

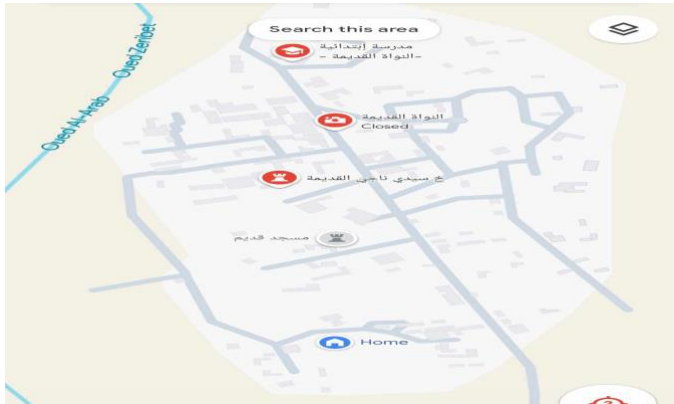
3- خنقة سيدي ناجي (النواة القديمة): النشأة والتطور:

ان دراسة المدن دراسة أنثروبولوجية لا يقتصر على الدراسة الفيزيكية النسيج العمراني وشبكة العلاقات الاجتماعية والمؤسسات القائمة بها المنبثقة من ثقافة المجتمع لتلبية حاجيات افراده بل تتعدى الى الجانب الاستيعابي لمعرفة الفضاء المعرفي الذي تشكلت فيه المدينة والكشف عن الاسباب الخفية التي تأسست عليها المدينة وتطورت وكيف تدهورت. وتعتبر خنقة سيدي ناجي انموذج بترائها لمحاولة فهم المدن العتيقة وكيفية اشتغال التراث الثقافي واعادة انتاجه بصورة تتلاءم مع العصر الحال انطلاقا من السياقات والثقافية التي تشكلت فيها.

3-1-الموقع وأصل التسمية:

تقع خنقة سيدي ناجي شرق عاصمة الولاية بسكرة وتبعد عنها حوالي 105 كم عبر الطريق الوطني رقم 83. وعن مدينة خنشلة حوالي 120 كم تقابل جغرافيا مدينة قفصة التونسية. وهي احدى البلديات التابعة لزريرة الوادي، ويعتبر وادي العرب الذي يمر بها جزءا مهما منها.

الصورة رقم 01: موقع مدينة خنقة سيدي ناجي



صورة رقم 1: خريطة مدينة خنقة سيدي ناجي (المصدر: google maps)

3-2-أصل التسمية:

وتسميتها بالخنقة يعود لموقعها الجغرافي وتضاريسها حيث تتموقع بين جبلين يتوسطهم الواد وكلمة خنقة تعني فج أو مضيق، اعطيت صفة البلدية في عام 1946م ويقطنها حاليا حوالي 4000 نسمة.

ويعتمد سكانها اساسا على الفلاحة من موارد غابات النخيل والمساحات الزراعية المسقية من مياه واد العرب.

ووفقا لما حفظته الذاكرة الشعبية كانت تسمى مورد النعام وفي الحقيقة هذا التسمية تعود منخفض تتجمع فيه مياه الوادي عند مروره بين الجبل ليشكل بركة مياه كانت تقصدها القبائل التي كانت تقطن على تخومه لسقي انعامهم من جمال واغنام وماعز. واغلب هذه القبائل ذات اصول امازيغية شاوية وهي اولاد تيفورغ الاعشاش وبني عمران وبني بلبار. ثم سميت خنقة سيدي ناجي بعد تأسيس الحاضرة العلمية على يد سيدي مبارك بن قاسم بن ناجي. كما ان بالخنقة اثار رومانية ومنها ساقية النصرى الممتدة اصلا من خيران الى شبله هبوطا الى الخنقة ثم الى فيض السلة مرورا الى ليانة وصولا الى قلعة بادس حيث الثار الروماني.

3-3- تأسيس وتشكل النواه الاولى للمدينة:

المدينة عموما لا تتشكل دفعة واحدة ودون دوافع واسباب وموضوعية. فاذا بحثنا في تاريخ تشكل المدن على مر العصور نجد ان البذرة الاولى التي تشكلت عليها المدن هي المقدس ومكان الاجتماع لإقامة الطقوس الدينية او بظهور زعيم يتحول الى شخصية مقدسة تنسب اليه صفات خارقة وتحاك حوله الاساطير (مفورد، 2016، صفحة 15) وقد يتحول هذا الشخص الى جد افتراضي تلتف حوله القبائل لتشكل مجتمعا حضاريا متماسكا نسبيا. ويحيلنا هذا المضمون الى قصة تأسيس خنقة سيدي ناجي التي ينقلها لنا التاريخ والمرويات الشفاهية. حيث ان سيدي مبارك بن قاسم بن ناجي جاء من تونس قاصدا المكان المسمى مورد النعام بناء على رؤية رآها في المنام مضمونها ان الرسول (ص) قال له في المنام اذهب وأسس زاويتك في مورد النعام. فأسس اول لبنة لهذه المدينة عام 1010 هـ الموافق للسنة 1602م وذلك بإنشاء زاوية للصلاة وتعليم شتى العلوم واصبحت وجهة لطلاب العلم من كل حذب وصوب. حيث قال عنها الورتيلاني في رحلت الخنقة قرية مباركة طيبة ذات نخل واشجار وسط واد بين جبلين. ويقال ان سيدي مبارك رافقته عدة قبائل هي: صدارته، هزبرة، زهانة، دريد، زناتة، روفة ونهد. بعد ذلك تشكلت المدينة وظهرت معالمها مقسمة الى خمسة أحياء رئيسية هي كزرده وحي السوق وحي ودريد وحي صدارته وحي لواتة وكذلك وقف للوافدين والقاصدين طلب العلم وتم احاطتها بسور له بابان بالحراسة. ثم سميت بعد ذلك بخنقة سيدي ناجي تبرك بجدي سيدي برك الدفين بساحة الخيل بتونس العاصمة.

4-مراحل تطور المدينة:

من خلال ما تم جمعه من روايات شفوية من سكان خنقة سيدي ناجي، نُقلت حكايات تعكس الأهمية الدينية والتاريخية لهذه المنطقة ودور الأولياء الصالحين في بناء معالمها الأساسية:

4-1- تأسيس خنقة سيدي ناجي:

وفقًا لما ذكره المخبرون، يعود الفضل في تأسيس خنقة سيدي ناجي إلى الولي الصالح سيدي المبارك بن قاسم بن ناجي الأصغر بن قاسم بن ناجي الأكبر رحمه الله، والذي أقام زاوية في عام 1010 هـ/ 1602 م لتعليم العلوم الشرعية والنقلية وتلقين الطريقة الناصرية الشاذلية. وقد أصبحت هذه الزاوية مركزًا رئيسيًا لتجمع طلاب العلم من مختلف الأنحاء، إذ سعى الولي المبارك إلى جعلها محطة دينية وعلمية مفتوحة للجميع. بعد وفاته في عام 1031 هـ/ 1622 م، دفن بجوار هذه الزاوية، وتحولت إلى مسجد يحمل اسمه، حيث لا يزال ضريحه يزوره المريدون وأتباع الطريقة الصوفية حتى اليوم. كما يروي المخبرون أن سيدي المبارك لم يقتصر دوره على الجانب الديني فقط، بل عمل مع أتباعه على غرس بساتين النخيل والأشجار المثمرة، حيث أنجز خمسة سواقي: ساقية هزبرة، ساقية زهانة، ساقية دريد، ساقية سدراته، ساقية زناتة مما ساهم في تحسين الزراعة وتوفير الموارد للمجتمع المحلي.

توسيع وتجديد مسجد سيدي المبارك: من الروايات الأخرى التي تم نقلها، يتبين أن المسجد خضع لتجديدات هامة في عام 1147 هـ/ 1734 م على يد الولي الصالح سيدي محمد بن محمد الطيب. ووفقًا لما ذكره المخبرون، تم العثور على نقش تاريخي على يسار المحراب يشير إلى أن سيدي محمد قام بتوسيع المسجد، مشيرًا إلى أن هذا العمل كان بدافع تكريس سنن الأولياء وتوفير مكان أكثر اتساعًا لأداء الصلاة. كما تم ذكر تفاصيل دقيقة حول العمل الذي قام به البنّاؤون، مثل الحاج محمد السعد بن عمر الصفا قصي، الذي كان مسؤولاً عن تثبيت الأعمدة المنحوتة من الصخر وعددها 24 عمودًا. وتم كذلك تركيب الباب الغربي للمسجد وبناء المنارة بارتفاع 61 درجة، وهي تعتبر من أبرز معالم المسجد المعمارية التي لا تزال قائمة حتى اليوم.

4-2- التوسعة الثانية للمسجد والمدرسة الناصرية:

يرى المخبرون أن المسجد شهد توسعة إضافية في عام 1171 هـ/ 1758 م على يد الشيخ أحمد بن ناصر بن محمد بن الطيب، الذي استخدم من ماله الخاص مبلغًا قدره 8112 سلطانية (عملة ذهبية

متداولة في تلك الحقبة) لتغطية تكاليف البناء. بالإضافة إلى ذلك، أنشأ الشيخ أحمد المدرسة الناصرية التي كانت تضم 15 غرفة لإيواء الطلاب الذين كانوا يأتون من خارج خنقة سيدي ناجي. وتشير النقوش التي عُثر عليها فوق باب المدرسة إلى أن الشيخ أحمد كان متمسكاً بتعليم السنة النبوية وتعليم أصول الدين والتصوف لطلاب العلم. كما قام ببناء الدمس وقبة ضريح سيدي المبارك، ووردت على القبة نصوص تمجد ذكرى الولي الصالح وتطلب من الله المغفرة له ولجميع المسلمين. هذه الأعمال تُظهر مكانة خنقة سيدي ناجي كمركز روحي وعلمي كبير في المنطقة.

3-4-ترميم صومعة مسجد سيدي المبارك: في عهد الشيخ حسين بن أحمد بن ناصر، الذي تولى المشيخة في عام 1210 هـ/ 1794 م، تمت أعمال ترميم كبيرة في المسجد، خصوصاً صومعة المسجد. وتشير روايا لمخبرين إلى أن الشيخ حسين قام باستقدام بنائين مهرة من تونس، من بينهم الاصطلا على البيزنطي وأخوه محمد، بالإضافة إلى قاسم الصفا قصي. وتم تصنيع الأجر الذي استخدم في ترميم سقف المسجد والصحن والسرايا والدمس في عهد الباي حمودة باشا، حيث عُرف هذا العصر بالرخاء والازدهار، مما سمح بإدخال تحسينات معمارية كبيرة على المسجد والمرافق المحيطة به.



صورة رقم 02: صحن للصلاة في فصل الصيف (تصوير الباحث)

-يحتوي المسجد على: صحن غير مغطى للصلاة في فصل الصيف مبلط بالأجر الأحمر ومساحة قاعة الصلاة المغطاة حوالي 230 م² وبها محراب واسع تحيط به نقوش نباتية أما منبر المسجد فهو متحرك ومصنوع من الخشب تحيط به زخارف نباتية بالألوان يعود صنعه إلى 1147 هـ/ 1734 م. وللمسجد أبواب لدخول وخروج المصلين ليبيت الصلاة وباب رابع يوصل للمدرسة الناصرية ومقصورة صغيرة لها بابان صغيران يدخل من خلالها خطيب وإمام الجمعة - وللمسجد باب خارجي يوصل من

الرحبة إلى ضريح سيدي المبارك رضي الله عنه - المدرسة الناصرية التي تخرج منها العديد من العلماء في كافة العلوم وكانت منارة لإشعاع العلمي وقد توقف نشاطها في القرن 20 الميلادي بسبب الاحتلال الفرنسي. سيما بعد المقاومة الشرسة التي قادها سيدي عبد الحفيظ شيخ الزاوية الرحمانية بخنقة سيدي ناجي سنة 1849م بالتحالف مع زاوية سيدي الصادق اولحاج الموجودة بجبال احمر خدو بالأوراس، ومن أهم أسباب تقلص نفوذ الزاوية هي:

- ظهور الحركات الوطنية أثناء الاستعمار الفرنسي وتأسس جمعية علماء المسلمين التي استقطبت أغلب أعلام المنطقة مثل محمد بن مكي (مقترح اسم مجلة البصائر) والشيخ العربي التبسي وكذا الحصار المفروض من طرف المستعمر الفرنسي؛

- تأمين الأراضي في فترة ما بعد الاستقلال من طرف الدولة أدى الى انصراف الناس وهجرتهم نحو المدن مما أدى إلى تدني النشاط الزراعي الذي كانت تقوم عليه المدينة كمورد اقتصادي أساسي؛

هذا ما افصح عليه الذاكرة الشعبية من خلال ما حافظت عليه الروايات الشفهية والكتابات التاريخية وتشهد عليه المعالم التاريخية حول نشأت وتطور المدينة، اما الجوانب الخفية التي تنكشف لنا من خلال السياقات التاريخية التي نشأت فيها نستعرضها فيما يلي:

-النفوذ العثماني على تونس والجزائر في تلك المرحلة التاريخية ومحاولة الهيمنة على جل الاقاليم واخضاع القبائل المجاورة لنفوذها وبسط سلطتها السياسية والاقتصادية. وهذا ما يعكسه مجيء سيدي مبارك والوفد المرافق له والصناع والحرفيين من تونس ابان الحكم العثماني والعلاقة الحسنة بين زاوية سيدي مبارك والبايات العثمانيين فهم يدينون لها بالولاء ويعملون على تحصيل الجباية ويحكمون تحت سلطة البايات،

-الصراع الخفي بين ايالة تونس وايالة قسنطينة التي وصلت الى حد هجوم باي قسنطينة على خنقة سيدي ناجي وضربت برج السطحة بالمدفعية لأنه سمع انهم يريدون الانتساب الى تونس، كما تنقله لنا الروايات الشفهية، وهذا يدخل ضمن الصراعات الإقليمية ومحاولة بسط النفوذ على المنطقة من طرف كل جهة.

5-نتائج الدراسة:

تشكل المدن العتيقة على أسس متعددة منها:

- ثقافية دينية واجتماعية يلعب فيها المقدس دور محوري كالزوايا وأضرحة الأولياء التي تتجلى من خلالها الهوية الثقافية للمجتمع؛
- الجانب الايكولوجي كتوفر مصادر للمياه وارض خصبه قابله للزراعة وأماكن أمنة ومحصنة؛
- تمثل السياقات التاريخية وأحداثها عاملا أساسيا في تشكل المدن؛
- تعكس المدن العتيقة الواقع السوسيو ثقافي للمجتمع المحلي في مراحل تاريخية متتالية وتعتبر جسر واسط بين الماضي والحاضر؛
- تفصح المدن العتيقة عن واقع وآليات التغير الثقافي، الاجتماعي، السياسي والاقتصادي الذي يمكن رصده من خلال تطور معالمها وموروثها وصمودها عبر التاريخ؛
- يحكم تغير المدن العتيقة مجموعة عوامل مثل: الثقافة، السياسة، الاستعمار، الاقتصاد، الدين
- تلعب المدن العتيقة دورا بارزا في الجذب السياحي مما يجعلها محركا أساسيا في الرفع من وتيرة التنمية الاقتصادية عامة

خاتمة:

مدينة خنقة سيدي ناجي ليست مجرد معلم تاريخي، بل هي مرآة تعكس تعقيدات الحياة الاجتماعية والثقافية التي تشكلت عبر قرون في منطقة الزاب والأوراس. إن مسؤولية الحفاظ على هذا الموروث الثقافي الإنساني تقع على عاتقنا جميعا، حيث تتجاوز الجهود الفردية أو المحلية لتصبح التزام جماعي تتبناه المؤسسات الحكومية والمجتمع المدني على حد سواء. يجب أن تكون هذه الجهود واعية بما تحمله خنقة سيدي ناجي من قيم رمزية وتاريخية تتطلب الحفاظ عليها وفقا لمعايير دولية تحترم أصالتها، إن إعادة الترميم لا تعني مجرد إعادة بناء مادي للمكان، بل هي إعادة إحياء لذاكرة المجتمع وتاريخه، وذلك من خلال الحفاظ على النمط العمراني الذي يعكس تطور الحضارة المحلية على مر العصور وبهذا، يمكن أن تتجاوز خنقة سيدي ناجي دورها التقليدي كموقع تاريخي لتصبح عنصرا فاعلا في التنمية الشاملة من خلال تحويلها إلى مقصد سياحي يعزز الاقتصاد المحلي لتحقيق ذلك يجب توفير بنية تحتية سياحية متكاملة تتضمن الفنادق والمطاعم والمواصلات، بالإضافة إلى إقامة مهرجانات ومعارض سنوية تبرز التراث الثقافي الغني الذي يمثل هذا المعلم.

الخنقة ليست فقط تراثاً، بل هي نافذة يمكن من خلالها استشراف آفاق جديدة للتنمية الثقافية والاقتصادية، شرط أن يكون العمل المنهجي والعلمي هو الأساس في كل خطوة نتخذها نحو هذا الهدف.

قائمة المصادر والمراجع:

بن مسعود عمار بن محمد. (20 04, 2023). مدونة الاحسان خنقة سيدي ناجي. تم الاسترداد من amara62.blogspot.com.

خلف الله بوجمعة، و تومية عمروش. (12 04, 2023). www.academia.edu. تم الاسترداد من. السياحة الثقافية في الجزائر الاكانيات والاستراتيجيات.

لويس ممفورد. (2016). المدينة على مر العصور اصلها وتطورها ومستقبلها. القاهرة: المركز القومي للترجمة.

مجموعة باحثين. (2013). مشروع السياسة الثقافية للجزائر. الجزائر: د د ن.

محمد سامي عبد المعطي. (2020). تغيير الانشطة و الاستعمالات للمناطق التاريخية. التخطيط العمراني والمجالى، 02، 15.

الملاحق:



صورة رقم 1. مخطط للمدينة العتيقة- خنقة سيدي ناجي-(نواة قديمة)



صورة رقم 2. آلة طباعة قديمة



صورة رقم 3. الخنقة النواة مدينة القديمة



صورة رقم 4. مسجد الولي الصالح سيدي عبد الحفيظ